

الطب والعرب

د/ تسني

جامعة كيرالا

جاءت دعوة القرآن للنظر في ملكوت السماء والأرض. وجاء ختم الآيات التي تعرض بعض مظاهر الكون بأن في ذلك لآيات لأولي الألباب، ولقوم يعقلون ويتفكرون، وللمؤمنين وللموقنين إلى غير ذلك مما بحث على النظر والتدبر. ولا يكمل النظر والتدبر إلا بالغرض في مغرفة التفصيلات والأسرار التي تجعل العالم المتدبر يهتف من أعماق قلبه "ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار". المسلمون الأوائل قد أقبلوا إذن على العلم بدافع من إيمانهم واستجابة لدعوة القرآن الكريم لهم، رغبة منهم في أن يساعدهم علمهم هذا على التعمق في إيمانهم والتقرب إلى ربهم.

فالنهضة الإسلامية، كما نفهمها، انفتاح مادي، وحضاري، وفكري، وعلمي، على أقطار وحضارات وثقافات وعلوم العالم. وهي حرية واجترأ وتجديد وإضافة وهدم وبناء. لقد خلفت القرون النهضة الإسلامية بتيارات مختلفة وما جاءت بأحداث، وأدت إلى كشوف واختراعات. وكانت أقطار المسلمين طوالها هي مركز الكون والحضارة، وأمل الإنسانية. وعجيب أن يعود الفضل في كثير من فتوحات تلك النهضة إلى حكام. وقد ظهر اهتمام العرب بالطب وعلم الشفاء في الحديث النبوي الشريف "العلم علما علم الأديان وعلم الأبدان" لقد خطا العرب خطوات واسعة في استعمال العقاقير للتداوي، فهم أول من أنشأ حوانيت خاصة لبيع الأدوية،

وأقدم من أسس مدرسة للصيدلة. بل أول من وضع الأقرباذين (كتب الأدوية). وقد ألفوا كثيرا من الرسائل في الصيدلة كان من أوائلها ما وضعه جابر بن حيان. وكان يفرض على المطيبين زمن المأمون والمعتصم أن يجتازوا امتحانا خاصا، وفرض على الصيادلة مثل ذلك. وفي الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي في الشرق يصعد سلم السيادة الطبية تدريجا، كان الغرب الإسلامي أيضا بموازة الشرق في تصدر المركز العلمي الطبي. فنجد في الأندلس أطباء شهرور وداووا وألفوا ووضعوا الموسوعات، فأضافوا إلى التراث الطبي الإسلامي جملة من المفاهيم التي اعتر بها الإسلام والمسلمون.

واعتبرت الجراحة من المهن المستهجنة التي تليق بالحلاقين والفصادين والمجبرين، ولا تليق بالأطباء المعالجين. وقد ساعد على انتشار هذه النظرة اعتبار الجراحة عملا يدويا لا يجوز أن يتدنأ إليه الفلاسفة من الأطباء، وإنما هي مما يليق بالبعيد. استمرت هذه النظرة المجحفة بالجراحة أكثر القرون الأولى للنهضة العلمية

الإسلامية. حتى أننا نجد أن الأطباء المسلمون أطلقوا على الجراحة اسم "صناعة اليد". المعروف أن الرازي (الثالث/الرابع هـ-التاسع/العاشر م) والمجوسي وابن العباس (الرابع هـ/العاشر م) كانوا من أوائل من خصوا للجراحة بفصول في كتبهم الطبية. وقد خص الرازي الجراحة بفصول في "المنصوري" و"الحاوي". وكتب الأخير بحثاً عن تفتيت حصوة المثانة. وحصوة الكلي، والشق عليهما، وكذلك بحث في عمليات كثيرة منها إصلاح الشفاه والأذن والأنف. وكان من أوائل الأطباء المسلمون الذين استخدموا إمعاء الحيوان في خياطة العمليات الجراحية. وصف الزهراوي في "التصريف" وصنع، واستخدم في عملياته أكثر من مائتي آلة جراحية في مختلف فروع الجراحة. وكان من أوائل من استخرجوا حصى المثانة عن طريق المهبل. واستخدموا أصنافاً من الحرير في ربط الأوعية الدموية.

أن أول من أنشأ البيمارستان في الإسلام هو الوليد بن عبد الملك. فقد أقام بيمارستانه في دمشق حوالي عام 79/86 أو 98 هـ (707/705 أو 716 م). وكان هذا البيمارستان مخصصاً للمجانين، ثم ضم إليهم المجذوبين. وكانت بيمارستانات المسلمين دور علاج وبحث وتدريب، لا تقتصر في أغراضها على علاج المرضى، وإنما تساهم بدور وافر في تقدم علوم الطب وتخريج الأطباء الأكفاء. وإلى جانب الأطباء والجراحين المجبرين والفاصدين والصيدلة خدم في بيمارستانات المسلمين المولدون والمرضون والطباخون والخدم والعبيد. وتميزت في الأندلس بالذات فئة من السيدات الممرضات والمولدات. وقد أنيط بهن تولد النساء ومساعدة الأطباء في مهام المعروفة ومحدودة. ومن أشهر مولدات الأندلس ممن خلد هن التاريخ أخت الحفيد ابن زهر وابنتها.

كان ابن النفيس هو أول من اكتشف الدورة الدموية. وأوائل من خص التشريح بمؤلف كامل هو "شرح تشريح القانون" وفي هذا المؤلف نبه ابن النفيس إلى ضرورة التشريح بعد الموت مباشرة، حتى يتجنب المشرح تجمد الدم. كذلك صحح ابن النفيس لجالينوس وابن سينا أخطائهما عن الدورة الدموية الصغرى، وتجاويف القلب والطريقة التي تتغذى بها عضلاته. وهذا وقد نفى ابن النفيس عن نفسه تهمة التشريح، ومع ذلك فتصحيحاته عن مسار الدم في القلب. وعن وظيفة العروق فيه، لا تستقيم من دونها. فقد انكر ابن النفيس ما قال به جالينوس من وجود مسام دقيقة يمر خلالها الدم من "تجويف" القلب الأيمن إلى "تجويف" القلب الأيسر" وذهب إلى أن مرور الدم من التجويف الأيمن إنما يتم عن طريق الشريان الرئوي إلى الرئة حيث يمتزج الدم بالهواء. ثم من الرئة عن طريق الوريد الرئوي إلى التجويف الأيسر. حيث يتم تكوين الروح الذي يجري من القلب إلى الأنسجة. أما دورة الدم للكبرى، أي عودة الدم من الأنسجة إلى القلب الأيمن، فإنها لم تعرف حتى هارفي (Harvey) بعد ذلك بثلاثة قرون. وقد ضمن ابن النفيس اكتشافه للدورة الصغرى شرحه لكتاب "تشرريح القانون" وهو أهم كتبه. وقد اكتشف مخطوطته في دار كتب برلين في عام 1340 هـ. وله عدة مؤلفات في الطب.

أبو بكر محمد بن زكريا. فيلسوف وطبيب وصيدلي وكيميائي ورياضي وموسيقي فارسي. وكان من أوائل من استخدموا مركبات الرصاص فيصنع المراهم، وأمعاء الحيوان في خياطة الأنسجة عند إجراء العمليات الجراحية. وقد جرب مستحضراته الصيدلية في الحيوان قبل تقديمها لمرضاه. كذلك وصف استخدام الجبس "بلاستير باريس" فبتجهيز الكسور. وأهم مؤلفات هو الموسوعة الطبية الصيدلة "الحاوي". الذي يتكون من قسمين كبيرين: الأول في الأقرباذين والثاني يبحث في ملاحظات عيادة (سريرية). تهتم بتطور المرض وسير العلاج وتتبع حالة المريض ونتيجة العلاج. وهي تقع في عشرة أجزاء و24 مقالا. وتعتبر إحدى المراجع الكبرى في القرون الوسطى. وللرازي وصف جيد لعملية إزالة جزء من العظام المريضة أو استئصالها كلها واستخدامه الماء البارد في علاج الحروق. وكان من أوائل من فرقوا بين التهاب القولون والمغص الكلوي، وبين الحصبة والجذري الخ. وقد وضع في وصف الجدري والحصبة رسالة من 14 فصلا تعتبر من أفضل ما بقي من التراث الطبي في الإسلام. وقد بين الرازي في رسالته، "الجدري والحصبة" وقد طبعت في اللغة الانجليزية أربعين مرة منذ 1498 حتى 1866. وهي من أهم الكتب في الأوبئة لم يكتف فيها بوصف الطفح وعلاقته بارتفاع درجة الحرارة، وانتشاره بل أشار إلى أهمية فحص القلب والنبض والتنفس أثناء المرض. كما ذكر طرقا لوقاية العين والوجه والفم.

ابن جزلة طبيب صيدلي ومنجم عراقي. وقد رأى فائدة الموسيقى في علاج الأطباء، وحث الأطباء على استخدامها. الزهراوي طبيب وجراح أندلسي وللزهراوي رسائل كثيرة في أمراض النساء. وتحضير الأدوية وعلاقة المريض بطبيبه. ولكن أكثر ما يشتهر به هو مؤلفه "التصريف لمن عجز عن التأليف" وهو موسوعة كاملة من ثلاثة أقسام وثلاثين بابا. وتختص أقسامها بالطب الإكلينيكي أو الباطني. والجراحة، والصيدلة. وتضم الجراحة ثلاثة أبواب. وبالكتاب مقالات في إخراج الجنين الميت من بطن الحامل. وعمليات استخراج حصى المثانة بالشق والتفتيت. ومعالجة الكسور والخلوع. ووصف الشلل. وطرق تعليم الناتج عن كسر عظام الحوض القوابل والمرضات الخ.

أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا يعتبر أنه مركزا طليعيا بين "المشاهير من علماء العرب والإسلام" واحد عباقرة التراث الخالدين، فهو في عصره أول من جعل الطب بعيدا عن الخرافة والشعوذة، مرتبطا بالسببية العلمية. وقد قال: ليس هناك أمراض لا أسباب لها. وأوضح ما للماء والأتربة من دور كبير في تفشي الأمراض. وأول مبدأ من مبادئ العلاج، في نظر ابن سينا، اكتشاف علّة المرض ومحاولة تجنبها للحول دون حدوث المرض، وهذا ما يسميه ابن سينا الوقاية من الأدوية بتجنب مسبباتها، مؤكدا أهمية الوقاية في حفظ صحة الأفراد والجماعات على حد سواء. في اكتشاف عدد من الأمراض هو أول من وصف التهاب السحايا مميزا بين نوعين من هذا الالتهاب. السحايا الأولى، والسحايا الثانية. وهو أول من بين أسباب اليرقان والعلل التي

تسببه. وقد ميز ابن سينا أيضا بين نوعين من الشلل: الداخلي الذي سببه في الدماغ، والخارجي وهو خلاف الأول. وكان ابن سينا كثير العناية بحبس النبض في التوصل إلى معرفة العلة وتشخيصها مؤكدا تحكم الحالة النفسية بمدى انتظام النبض وسرعته. اكتشف مرض " الإنكلوستوما " المتصل بنوع من الديدان المعوية، وهو الدودة المستديرة.

كذلك سبق ابن سينا إلى إظهار الفرق بين داء الجنب وآلام العصابة في ما بين الضلوع. وقد أجاد في معرفة الأمراض الجلدية والتناسلية والاضطرابات العصبية وتبيان ما للحالات النفسية كالخوف والقلق والكآبة، من تأثير واضح في حالات الجسم وأعضائه. ولابن سينا الطبيب، أبحاث خاصة بالأمراض النسائية: فقد أشار إلى أسباب العقم وما يسمى بـ "الحمل الكاذب"، وكان في دراساته ذا اهتمام بالطفل والمرأة الحامل.

كما كان كتاب " القانون في الطب " لابن سينا أكبر شاهد على عظمة الطب الإسلامي، هذا الكتاب يستخدم كمصدر إجباري في كل الجامعات الأوروبية حتى القرن السابع عشر الميلادي. وفي الكتاب الأول من " القانون " يأتي الموضوع الرئيسي، وهو علم التشريح ووظائف الأعضاء، نجد وصفا دقيقا لجميع الظواهر المرضية التي تتضح نتيجة لدراسة وظائف الأعضاء وما يمكن أن يعطل هذه الوظائف، ولقد كانت معرفة ابن سينا بعلم التشريح مثار دهشة وإعجاب. طرح ابن سينا في الفن الأول من الكتاب الأول من (القانون مفهومه الأساسي من الصحة والمرض)، ولن نستطيع أن نستوعب آراءه في علم التشريح دون فهم حقيقي لهذا المفهوم. وعن أسباب الصحة والمرض قال ابن سينا أنها أربعة: مادية، وفاعلية، وصورية، وتامة.

أهم مساهمات ابن سينا في علم الطب هي " القانون في الطب " هي كتابا شتملا على قوانينه الكلية والجزيئية اشتمالا يجمع إلى الشرح الاختصار وإلى إبقاء الأكثر حقه من البيان الإيجاز. يبين فيه الأمور العامة في الطب. يقسم الطب النظري والعملي. ثم يشرح في الكليات أحكام قوى الأدوية المفردة ثم في جزئياتها، بعد ذلك في الأمراض الواقعة بعضو. يبتدئ أولا بتشريح ذلك العضو ومنفعته. ومن تشريح العضو يبتدئ في الأكثر المواضع بالدلالة على الكيفية حفظ صحته، على كليات أمراضه وأسبابها وطرق الاستدلالات عليها وطرق معالجاتها. أعطينا القانون الكلي إلى معالجات الجزئية بدواء دواء بسيط أو مركب. أن الطب ينقسم إلى نظر وعمل، أن أحد قسمي الطب هو تعلم العلم. والقسم الآخر هو المباشرة للعمل، أن أحوال بدن الإنسان ثلاث، الصحة والمرض وحالة ثالثة لا صحة ولا مرض (متوسطة). الأسباب أصناف مادية وفاعلية وصورية وتامة. أن الطب ينظر في الأركان والمزاحات والأخلاط والأعضاء البسيطة والمركبة، والأرواح وقواها الطبيعية والحيوانية والنفسانية، و الأفعال وحالات البدن من الصحة والمرض والمتوسط.

ابن جزار القيرواني، طبيب تونسي. أسست مدينة القيروان بعد الفتح العربي لتونس وأقام الأمير إبراهيم الثاني جامعة علمية "دار الحكمة" لدراسة الفلسفة والطب والفلك وتقويم البلدان بمدينة "رقاده" وأنشأ في القيروان بيمارستان هو الأول من نوعه في افريقية. وكان البيمارستان عبارة عن مدرسة طبية أيضا فيها أساتذة كبار وطلاب من مختلف الأقطار ومكتبات عامرة. ويبدو أن ابن الجزار كان أستاذا في هذا البيمارستان الشيء الذي رفعه إلى تأليف الكتب العديدة لحاجة الطلاب لها. وقد تشكلت هناك ما يسمى "المدرسة القيروانية الطبية" التي كانت تضم لفيفا من المشاهير الأطباء العرب، وكان أول من بدأ الطب فيها إسحاق بن عمران. وهو طبيب عربي مسلم نشأ ببغداد وقضى في تونس قرابة عشرين عاما، وهو رأس هذه المدرسة الطبية.

الخاتمة

إن القرآن الكريم مصدر العلوم واستنبط منه العلماء في مواضيع شتى التي سببت لتطور العلوم في كل العصور. كانت فكرة علماء المسلمين بنور القرآن في قديم الزمان حتى يهديهم إلى قمة مجدهم لا سيما في علوم الطب. ولكن القرون التي جاءت بعدها اتخذوا القرآن مهجورا حتى يضيع منهم التراث الإسلامي القيمة. إن الأوائل اختاروا العلم الأصلي اختيارا ملائما لجميع الأطباء وكانوا يعيشون مع الطبيعة بصحة قوية بدون أي أمراض التي تفسد البشرية. ولكن العصر الحديث ضعفت منهم صحتهم بابتعادهم عن هذه القيم الجلية التي كانت موجودة عند السلف. إن الحل الوحيد لهذه المشكلة أن يرجع المسلمون إلى القرآن وتطبيقه في جميع أحوالهم اليومية. فالمسلمون الأوائل قد أقبلوا إذن على العلم بدافع من إيمانهم واستجابة لدعوة القرآن الكريم لهم. رغبة منهم في أن يساعدهم علمهم هذا على التعمق في إيمانهم والتقرب إلى ربهم، مما يمكن أن يطلق عليه "الإيمان يدعوا إلى العلم" كما "أن العلم يدعوا إلى الإيمان".

المصادر والمراجع

1. موسوعة عباقرة الإسلام، في الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة: د: رحاب خضر عكاوي، الجزء الثاني، دار الفكر العربي بيروت 1993.
(Akkawi, Rehab Khidr. Encyclopedia of the Geniuses of Islam: In Medicine, Geography, History, and Philosophy. Vol. 2, Dar al-Fikr al-Arabi, Beirut, 1993.)
2. الأعلام، خير الدين الزركلي، ط3، بيروت (بدون سنة الطبعة).
(Al-A'lam, Khair Al-Din Al-Zarkali, 3rd edition, Beirut (no year of edition))
3. البيان والتبيين، لجاحظ، المحقق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 1998 م.

(Al-Bayan wa al-Tabyeen, by Al-Jahiz, edited by: Abd al-Salam Muhammad Harun, Al-Khanji Library, Egypt, ed. 1, 1998)

4. آثار حنين بن إسحق، عامر رشيد السمراني وعبد الحميد العلوجي، صدر بمناسبة مار افرام- حنين، بغداد 1974م.

(The Works of Hunayn ibn Ishaq, by Amer Rashid al-Samrani and Abdul Hamid al-Alouji, published on the occasion of Mar Ephrem-Hunayn, Baghdad, ed.1, 1974)

5. الجامع لمفردات الأدوية الأغذية، ابن البيطار، الجزء الأول، طبعة الأفسيت مكتبة المثنى بغداد، القاهرة، 1991م.

(The Comprehensive Collection of Simple Drugs and Foods, Ibn al-Baytar, Part One, Offset Edition, Al-Muthanna Library, Baghdad, Cairo, 1991, ed.1)

6. أخبار العلماء في أخبار الحكماء، القفطي، مكتبة سعادة بمصر 1326 هـ.

(News of the Scholars in the News of the Wise, Al-Qifti, Saada Library in Egypt, ed.1, 1326 AH)

7. القانون في الطب، ابن سينا، دار الكتب العلمية، 1999م.

(Ibn Sina (Avicenna). The Canon of Medicine. Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah, ed. 4, 1999).

8. الحاوي في الطب، أبو بكر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط-1، 2021م.

(Al-Razi, Abu Bakr. Al-Hawi fi al-Tibb (The Comprehensive Book on Medicine). Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah, Beirut, ed. 1, 2021)

9. المختارات في الطب، ابن هبل، علي بن أحمد، دائرة المعارف العثمانية، الهند 1943م.

(Selections in Medicine, Ibn Hubal, Ali bin Ahmed, Osmania Encyclopedia, India 1943 AD)

10. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، دار المعارف، 1965م.

(The Eyes of News in the Classes of Physicians, Ibn Abi Usaybi'ah, Dar Al-Ma'arif, 1965 AD)